أثر الدين في ظهور الأدب

الدكتور عبد الرازق حميده

(رئيس قسم اللغات بالكلية)

للأدب تعريفات متعددة ؛ بعضها قديم ، وبعضها حديث . ولكنها كلها تدور حول وصفه بأنه : « نوع من الكلام ، ممتاز بحسن الصياغة ، وجمال الفكرة ، وقوة التأثير » .

وقد خضع هذا الأدب في نشأته وتطوره لعوامل متعددة ، وعنى تاريخ الأدب بتلك العوامل ومدى تأثيرها ، وقوتها أو ضعفها ، في عصور التاريخ ، واستطاع هذا التاريخ الأدبي ورجاله ، بالفكر والاستقرار النظري ، أن يلحظوا أثر هذه العوامل ، وأن يعقدوا صلة بينها وبين النفس الإنسانية التي يفيض منها الأدب .

وأهم ما قيل في ذلك أن النفس الإنسانية تستجيب للمؤثرات الخارجية والداخلية ، وتنفعل بها على نحو ما ، فإذا كانت من ذوات المواهب البيانية انطلقت بما يشجيها ، واندفعت في تسجيل عواطفها شعراً أو نثراً .

حدث ذلك من قديم الزمن ، لأن المواهب الفطرية قديمة قدم الإنسانية ، وكذلك المؤثرات التي تحرك هذه المواهب ، وتثير العواطف . ويجوز لنا — على هذا — أن نقول مع القائلين إن الأدب قديم ، ظهر مع الإنسان البدائي . وتأثر بالعوامل الفطرية التي وجدت معه في أول عهده بالحياة .

والدين ، أو التدين ، من أهم العوامل التي أثرت في حياة الإنسان منذ نشأته لأنه فطري في الناس ، بعده بعضهم غريزة ، وبعده بعضهم قوى الصلة بغريزة الخوف ، ويعرفونه بأنه : الاعتراف بالقوى العلوية ، وأداء الواجبات التي يفرضها هذا الاعتراف . أو بأنه « الشعور بخضوعنا لوجود لا يناله إدراكنا »

وتعددت هذه القوى فى عهود البداوة الأولى ، وملأ الإنسان حياته بآلهة تسيطر على حياته وعلى الكون الذى يعيش فيه ، وجعلها مراتب ، وجعل بينها وبينه نسباً ، وخلع عليها كثيراً من صفاته النفسية كالحب ، والحقد ، والحسد ، والطمع ، والرضا ، والانتقام .

وخشى الإنسان بأس هذه الآلهة ، وطمع فى ثوابها ورضاها ومساعدتها فعبدها ، وتقرب إليها ، وصلى لها ، وناجاها سراً وعلانية ، وصورها فى خياله ووهمه ، وأجرى ذلك على لسانه ، وحدث به نفسه ومن حوله ، واختار لذلك أحسن ما يجود به بيانه ، فظهر أدب للآلهة وحول الآلهة ، فى صورة دعاء وضراعة ، وصلوات وأناشيد وترانيم ، وقصص وأساطير .

وقد حاول بعض الباحثين أن ينظر إلى الأدب فى عهود الصيد والرعى ونظام القبائل فرأى الدين سلطاناً كبيراً عليه ، فآلهة الأنهار والأشجار ، وآلهة الصيد والرعى والمطر ، والزرع والثمر ، كلها توحى بأدب دينى يتحدث فيه الناس عن أعمال الآلهة ومساكنها . وعن الصلة بين بعضها وبعض ، وبينها وبين الناس ، ويتحدث إليها ضارعا أو شاكراً ، أو مستعيناً على أعدائه من الناس والحيوان والآفات .

فإذا صار الحكم أو توقراطياً ، والحاكم فيه مطلقاً لاشريك له فى إدارة الدولة ، أكبره الناس ونسبوه إلى الآلهة ، وصارت هذه الآلهة ذات فضل على الناس لأنها تكرمت عليهم ، فوهبتهم هذا الحاكم من ذريتها ، ليكون لهم مرشداً وحامياً ، ومصدراً للخير والسعادة ، ومن ورائه آباؤه أو الحامون له من القوى العلوية ، التى تستحق عندئذ قصائد المدح ، وصلوات الشكر ، وآيات الابتهال وأناشيد التسبيح بحمدها ، وأما الملوك الذين هم من سلالة الآلهة ، أو خلفاؤها بين الناس فهم مقدسون ، يتحدث الأدب عنهم حديث الإكبار والتقديس ، ويربط أسماءهم وأعمالهم بتلك الآلهة أو القوى . ويروى أخبارهم فى قصص وملاحم . نراها فى أساطير الأمم القديمة كاليونان والهنود والمصريين .

ويغلب الظن فى هذا العهد الأوتوقراطى ، وتدور حكاياته حول موضوعات دينية . ومسرحه هو المعبد . والمشتغلون فيه من رجال الدين . وتكون احتفالات الدينية مسرحيات يشترك فيها الملوك والكهنة . كما كان فى بابل ومصر القديمة .

ويعد رجال الدين فى طليعة الأدباء فى تلك العصور السحيقة . لتميزهم بثقافة أوسع من غيرهم . وقدرتهم على فهم الرسوم والتقاليد الدينية . وظهورهم بمظهر الواسطة بين الناس والآلهة . وهم الذين صاغوا عقائد الدين . وأناشيد الشكر . وآيات الصلوات والدعاء . وغلب الشعر على ذلك الأدب الدينى ليسهل حفظه . ويعذب فى الأفواه ترديده .

وهذه الأحكام النظرية اهتدى إليها الإنسان بدراسته للأمم الفطرية التى تعيش فى عصورنا الحديثة . التى رأى العلماء فيها صوراً من الإنسان الأول ، وفى دينها وأدبها شبها بما كان فى العهود السحيقة ، وفى العصور التاريخية تأيدت هذه الأحكام بما جاء إلينا من آداب الأمم التاريخية ودياناتها ، كالهنود والمصريين والكلدان والأشوريين والبابليين والعبرانيين ، واليونان والرومان ، وبما حدثنا به تاريخ الأدب فى الأمم الحديثة .

فى مصر القديمة :

وأن أقدم أثر أدبى عرفناه عن مصر القديمة هو « كتاب الموتى » الذى دون أولا فى عصر « بناء الهرم الأكبر » وهو كتاب دينى صميم فى محتوياته ، وفى الباعث عليه فأنه يشتمل على كثير من صلوات القوم ومواعظهم وأخبار آلهتهم . وآرائهم فى الحياة بعد الموت . وفيما ينبغى للأرواح أن تقوله يوم الحساب دفاعا عن نفسها فى قاعة العدل ، أمام الإله أوزيريس وقضاته الاثنين والأربعين .

وكان الكهنة يرتلون فصولا من هذا الكتاب فى احتفالات الجنائز ،

وكان أفراد أسرة الميت يجتمعون عند إحياء ذكرى فقيدهم ، فيتلون منه قطعاً فى غرفة القبر ، معتقدين أن روح الميت تسمعهم وقت التلاوة ، وتستفيد مما يتلون ، وتستعين بذلك على اجتياز المحن التى تصادفها فى طريق الآخرة .

وكان من عادة قدماء المصريين أن يضعوا هذا الكتاب المقدس مع الميت فى قبره ، ويختاروا آيات منه يكتبونها على جعل أو على ورقة بردى ، يضعونها فى رقبة الميت يوم دفنه تميمة له ، تحببه إلى الآلهة ، وتستميلهم ليغفروا له ذنوبه ، وليعفوا عن سيئاته .

ومن أقدم الصور الأدبية الدينية عند المصريين القدماء صورة اليوم الآخر . وقاعة الحساب أو العدل التى يجلس فيها الإله أوزيريس ليقضى فى مصير الميت ، ومن المناظر البديعة فى تلك القاعة منظر الإلاهه « معات » إلاهة الحق والخير والاستقامة ، جاثية فى كفة الميزان اليمنى ، وأمامها فى الكفة اليسرى قلب الميت ، رمزاً لأعماله ، فإذا كان الميت صادقا فى دفاعه عن نفسه استقام الميزان . والمشرف على الكفتين ومراقبة الميزان هو الإله « حورس » برأس صقر ، وأنوبيس برأس ابن آوى ، ويدون نتيجة الحكم الإله « تحوت » برأس الطائر إبيس .

ومن أقدم القصص المصرية التى عرفت قديما . ومرت بمراحل من التطور ، ثم انتقلت إلى اليونان والرومان ، وعرفت فى العصور الحديثة ، قصة « أوزيريس » الإله الذى تقدم اسمه هو وزوجته إيزيس ، وهى القصة المعروفة بإسم : قصة « إيزيس وأوزيريس » التى تبين لنا « أوزيريس » خيراً صالحاً هادياً للناس إلى الخير وإلى إصلاح الأرض ، ولكن أخاه « ست » أو « تيفون » الذى يمثل الشر والحقد ، يقتله ؛ فتحزن عليه زوجته « إيزيس » حزناً عظيما وتأبى أن تتزوج قاتله « تيفون » ، فتعطف عليها الإلهة وتعيده إلى الحياة ، ولكن « ست » يقتله مرة ثانية . ثم تعيده الآلهة إلى الحياة . فيضيق ذرعا بالشر والخطايا ، ويفضل أن يذهب إلى الآخرة إلهاً كبيراً بين آلهة الحساب ،

ويصبح رئيساً لقاعة العدل التي يجلس فيها ملوك على ما قدمت أنبيه في هذه الدار الدنيا .

وامتلأت الآداب المصرية القديمة في عهود مختلفة بالأدب الذي هو من الدين : بعضه تشبيهات . وبعضه صلوات ودعوات . وبعضه تقديس للآلهة من أمثال «أمون» و«رع» و«فتاح» وبخاصة في عهد «اخناتون» الذي ينسب إليه تغيير عبادة «أمون» ودعوته إلى إله واحد يمثله قرص الشمس . وسماه باسم «أتون» .

فالدين في مصر القديمة ترك آثاراً عظيمة في أدبها . وكان سبباً في ظهور الأناشيد والصلوات والأساطير الخاصة بالآلهة . وترك آثاراً في غيرها من البلدان مثل اليونان والرومان .

عند الهنود :

وأقدم أثر أدبي عند الهنود هو «الفيدا» وهو الكتاب المقدس عند الهندوس، يؤمنون بأنه وحي من الله إلى قادتهم وأنبيائهم في الأزمان الأولى . وتلقاه عنهم البراهمة ، وهو مشتمل على ترانيم وصلوات ودعوات . تنم عن روح ديني محض ، لأنها موجهة إلى القوى المسيطرة على الحياة من حولهم ، شكراً لها على نعمها ، أو ضراعة إليها أن تكشف أذاها . وفيها ترانيم عن الحياة الآخرة أيضاً .

وظهرت «الماهابهارتا» الملحمة الهندية الكبيرة متأثرة بالدين ، فإن براهما الإله الأعظم عند الهندوس القدماء ، هو الذي أوحى بها إلى شاعرها «فاليكي» واختار لها البحر الذي ظهرت فيه . وقال شاعرها : «بإرادتي خرجت تلك الكلمات من فمك، وسيشتهر هذا الوزن بعدك» . ويبدو أن بركة هذا الإله نزلت على شاعرها فطال نفسه فيها حتى بلغت أبياتها (٢٠٠,٠٠٠) مائتي ألف بيت .

ووراء هذا الكتاب يأتى [illegible] ، و « اليوبنشد » ، وهى كتب الوحى عند الهندوكيين ثم تأتى « الفيدانتا » أو ختام الفيدا ، وهو فلسفة الدين أو العقيدة عند الهندوكيين ، ولكنه ممتاز بحسن عباراته وتشبيهاته . فهو كتاب أدب أيضاً .

ودفعت العاطفة الدينية الهندوس فى القرن السادس الميلادى إلى كتابة ال « پورانا » ، وهو مجموعة من القصص التى تداولها الناس عن الآلهة ، وتلقاها الأبناء عن الآباء . وكانت عند كتابتها قد وصلت إلى مرحلة عالية من النظام والجمال الأدبى ، وهو موسوعة كبيرة فيها الشىء الكثير عن حياة الآلهة والقديسين ، وفيها قصص عن الخلق ، وترانيم دينية .

أى أن أدب الهنود القديم تأثر بالدين ، بل كانت ملاحمه الكبرى وكتبه المقدسة مدينة فى نشأتها وظهورها إلى الدين والآلهة ، وهى وحى منهم فى معناها وصورتها .

عند الفرس :

وتعد شخصية « زرادشت » عند الفرس من أقدم الشخصيات الدينية وظهرت حول مولده أسطورة تقول إن هاتفاً جاء إلى أمه عند حملها به ، يخبرها بما ينتظره من مستقبل عظيم ، وأنه سيعرج إلى السماء حيث يتلقى عند الإله « أهورامزدا » ـ إله الخير ـ كتاباً مقدساً فيه تعاليم دينه . هو « الأفستا » وقد سبقه أساطير وقصص عن الآلهة القديمة والأوثان التى كانوا يعبدونها .

فى الأدب العبرى :

والأدب العبرى القديم الباقى إلى الآن هو الكتاب المقدس الذى أوحى به إلى موسى وعيسى . ويعد من آيات الأدب عندهم . ولولا الدين ما ظهر هذا الأدب ولا تداوله الناس . وينقسم الكتاب المقدس إلى العهد القديم أو التوراة والعهد الجديد . أو الإنجيل .

ويتفق اليهود والنصارى على العهد القديم أو التوراة . وهو أساس الأدب العبرى ، وأساس الديانة المسيحية ، ويعد الكتاب الرئيسى فى آداب الأمم المسيحية .

وفى العهد القديم قصص وسير وروايات تعد من الأدب الجميل . وقد نشأت هذه القصص والسير والروايات نشأة دينية . وترعرعت فى منبتها الأول، ثم انتقلت شعراً ونثراً إلى أوربا، فصاغها الأدباء وأبدعوا فى صياغتها وأضافوا إليها خيالا عبقرياً أحياناً ، ولكن كثيراً منهم لم يزد على جمال الأصل وقوة بيانه كثيراً . ومن الآخذين من الكتاب المقدس « جن ملتن » أعظم شعراء انجلترا بعد شكسبير ، أخذ قصة الخلق وخروج آدم من الجنة ، وسماها « الفردوس المفقود » فكساها من أدبه ثوباً رائعاً ، وخلدت اسمه فى تاريخ الأدب والملاحم . وقصة الخلق هذه وردت فى سفر التكوين من التوراة . وهى مشهورة جداً فى الأدب .

ومن القصص التى شاعت فى الآداب الأوربية قصة الطوفان ، وامرأة نوح، التى كانت موضع زيادة فكاهية فى القصة . وشاعت فى الآداب الشرقية والغربية قصة يوسف ومجيئه إلى مصر وحياته فيها ، وتعد هذه القصة كاملة من الناحية الفنية .

وفى سفر القضاة من العهد القديم قصة « شمشون الجبار » الذى تزوج فتاة من الأعداء عرفت منه سراً فأخبرت به . وتزوج أخرى ، ثم تزوج « دليله » التى تآمرت مع أعدائه عليه، وعرفت منه أن سر قوته الخارقة يكمن فى شعره ، فغافله الأعداء وهو نائم وقصوه ، فذهبت قوته ، فقلعوا عينيه ، وأوثقوه بسلاسل حتى يقتلوه . ولكن شعره نبت، فعادت إليه قوته وإن لم يعد بصره . وفى إحدى الليالى أراد الأعداء أن يلهوا بشمشون فى حفل عظيم أقاموه . فطلب من الغلام الذى يقوده أن يدله على العمودين اللذين يقوم عليها المكان ، ثم أمسكهما وجذبهما ، فسقط البيت على شمشون وعلى أعدائه — فكان من قتلهم فى موته أكثر من قتلهم فى حياته .

وقد أخذ ملتن هذه القصة وكتبها شعراً باسم "Samson Agonistes" وتناولها الكاتب الفرنسي سانت Saint-Soes في رواية تمثيلية عظيمة . وتناولها كثيرون غيرهما في القديم والحديث، ومثلت عندنا في مصر كثيراً .

وهناك شخصيات أخرى وحوادث متعددة في العهد القديم تمتاز بقوة التصوير . وسمو البيان مثل داود وسليمان . ويعد « سفر أيوب » المؤمن الصابر ، الذي يصارع الآلام ويتغلب عليها بإيمانه ، من أجمل ما يرى الناس من الشعر الرقيق العاطفي ، حتى إن ترجمة هذا الشعر إلى أي لغة تقصر في نقل جماله ورقته وقوته ؛ ومزامير داود — والمعرفة عندنا باسم الزبور — تعد من عيون الأدب الديني أيضاً .

وأما العهد الجديد المشتمل على تاريخ حياة السيد المسيح فقد تغلغل في كل الأوساط والأمم حتى غير المسيحية ، وتركت حياة المسيح والقديسين والشهداء آثاراً لا حصر لها في الأدب العالمي تمثيلاً وتراجم وملاحم وغناء .

فالدين اليهودي والمسيحي كانا سبباً في ظهور أنواع من الأدب لا حصر لها أولها الكتاب المقدس . أما آخرها فما زال ممتداً ، ومن أحدثها في أدبنا العربي كتاب الدكتور محمد كامل حسين المسمى « قرية ظالمة » ومن قبله أهل الكهف لتوفيق الحكيم وغيرهما كثير .

أثر الدين والأساطير اليونانية :

فإذا ولينا وجهنا شطر الأدب اليوناني رأينا الدين ذا أثر كبير في نشأة أنواع منه وتطورها ، ووجدناه من أقدم المؤثرات فيه . وارجع إلى أقدم آدابهم وهو الإلياذة ، تجدها مملوءة بالأساطير الدينية التي تتحدث عن الآلهة وتقص أخبارهم وتصف مساكنهم وأعمالهم وصلتهم بالناس . ولم تكن هذه الأساطير مع ذلك وليدة العصر الذي عاش فيه هوميروس ولا من ابتداء

بل ورثتها الأجيال، ثم جمعها « هوميروس » فى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد ، وأحسن التعبير عنها فأكسبها بيانه قوة وسحراً وخلوداً .

وكانت نشأة المسرحية عند اليونان دينية فى الاحتفالات التى كانت تقام فى عيد الإله ديونيس Dionysus إله العنب والخمر .

وأشهر كتاب المأساة عندهم إسخليوس Aschylus وسوفوكليز Sophocles اللذين استعانا بالأساطير. فالأول كتب سبعين مأساة كلها تدور حول موضوعات دينية وأسطورية ، وكان يقول عن رواياته : إنها « فتات تناثر من مائدة هوميروس » . وسوفوكليز كتب أكثر من مائة مأساة تدور حول الدين . والأساطير اليونانية مملوءة بآثار الدين وشخصياته وبالآلهة وصلتها بالناس . ومن هذه الأساطير ما يروى أن فينوس إلاهة الجمال كرهت سيكى « Syche » بنت أحد الملوك لأنها كانت تنافسها فى الجمال ، وأمرت ابنها كيوبيد « Cupid » أن يقتلها ، فلما رآها وقع فى حبها ، لكنه اتفق معها ألا تنظر إلى وجهه أبداً ، فاستبد بها الشوق، ولم تستطع تنفيذ هذا الشرط ، فأوقدت مصباحا واقتربت منه وهو نائم ، فوقعت نقطة من زيت المصباح على وجهه فاستيقظ وفر من النافذة ولم تره بعدها .

ووجد كثير من هذه القصص طريقه إلى الخلود عند اليونان وبعدهم وخصوصاً فى عهد النهضة الأوربية .

ونشأت الكوميديا دينية كالمأساة . وغلب على الملاحم أثر الدين القديم وربما تركت هذه الاتجاهات الدينية صدى فى بعض الأدباء من شعراء الغناء فكتبوا أناشيد دينية وتراتيل ، بل إن الدين اليونانى القديم ترك أثراً عكسيا فى شاعرهم يوريبدس Euripedes فظهر فى ملاحمه بعض الإلحاد وعدم الإيمان بآلهة الأساطير .

أعنى أن الديانة اليونانية القديمة تركت آثاراً عظيمة فى الأدب اليونانى،

فأقدم مانعرفه من ملاحمهم مشحون بالأساطير . ونشأت المأساة والملهاة نشأة دينية ، وألحد يوريبدس فى الدين فظهرت المواقف الإلحادية وعبارات الشك والسخرية أحيانا فى مسرحياته .

عند الرومان

وانتقل كثير من أساطير اليونان وأدبهم عامة إلى بلاد الرومان ، وقلد الرومان أساتذتهم فى الأدب والفن ، وظهرت ملحمة رومانية عظيمة هى الإنياذة ، « Aeneid » كتبها شاعرهم الكبير ڤرجيل « Virgil » وظهر تأثير الدين فيها باستخدام الأساطير القديمة . ومحاولة ربط نسب الإمبراطور أغسطس بالآلهة . وهو الذى ظهرت فى أيامه الملحمة . وقد جعلته من ذرية ڤينوس « Vinus » إلاهه الجمال عند اليونان . اتصل بها جده « Anchises » أنشيز ، فولدت له إنياس « Aeneas » الذى سميت الملحمة باسمه . وجاء هذا الأمير « إنياس » إلى روما بعد أهوال . منها أن الريح أثارت العواصف لتغرقه هو وأصحابه ، لكن « نبتون (Niptune) إله البحر لم يلبث أن أسكن الريح ، ورست سفينته على شاطىء ليبيا ، وشكت ڤينوس إلى أبيها جوپتر Jupiter كبير الآلهة ، فأخبرها أن له فى الغيب ملكا كبيرا ينشئه فى بلاد الرومان ويرثه أولاده من بعده . وكان من ذريته الامبراطور أغسطس .

ومن مظاهر الآثار الدينية فيها تلك الرحلة التى ذهب فيها إنياس إلى الجنة ليلتقى بروح أبيه أنشيز . فهدته الكاهنة « سنيل » — « Sibyl » الطريق فى مغامرات وأهوال ، حتى بلغا معا الإليزيوم « Elysium » أو جنة الأبرار عند اليونان .

وذهب إنياس إلى إيطاليا ولقى حروبا وأهوالا اشتركت فيها الآلهة ، بالعون والمدد ، له أو لأعدائه ، ثم انتصر وأنشأ مدينة روما على شط نهر التيبر « Tiber »

فالأساطير الدينية كانت ذات أثر واضح فى الإنياذة ، وكانت دراسة

فرجيل للإيذة بأساطيرها وآلهتها وحروبها ، وماطر بعد من أساطير رومانية وآلهة وإلاهات . ذات طابع خاص فى الإنيادة . وكانت مشاهد الدار الآخرة صورة من صور الإيمان بها وفكرة الرومان عنها .

وظهرت الكوميديا المقدسة فى الأدب اللاتينى فى القرون الوسطى . للشاعر الكبير « دانتى الجيرى » وفيها مشاهد لقيامة أو الدار الآخرة من عذاب ونعيم ، فقيل إنها متأثرة برحلة الغفران لأبى العلاء . وقيل إنها متأثرة بالأساطير اليونانية والرومانية بجانب الديانة المسيحية . وهى على كل حال عمل خالد بقوة تصويره لا بفكرته . وهى أثر من آثار الدين أوحى به ظروف خاصة عاشها دانتى ، وآخر مشهد فيها هو « الفردوس » ، وكانت تهديه فيه « بياترتشى » حبيبته . ويرى « دانتى » مشهدا رائعا يمثل الكنيسة ماضية فى طريقها إلى النصر . وآخر مشهد له هو السماء التاسعة « ويعلوها بحر هادىء ساكن من الحب الإلهى حيث يبارك الله ملائكته وقديسيه » .

فى الأدب الانجليزى

وفى انجلترا يعدون من أقدم أدبائهم شاعرين عاشا فى العصور الوسطى هما كادمن « Cadmon » وسينولف « Cynewulf » وقد ظهر أدبهما متأثرا بالدين فنظم الأول سفرين من أسفار العهد القديم . هما سفر التكوين وسفر الخروج . وألف الثانى ثلاث قصائد جمعت بعنوان « المسيح » . ولا ننسى أن أهم عمل شاعرهم تشوسر « Chaucer » هو قصص كانتربرى The Canterbury Tales وهو مجموعة من القصص كان مفروضا أن يقصها طوائف من الحجاج فى طريقهم إلى ضريح القديسين . وفى عودتهم منه . وهو عمل أدبى عظيم ، جعل الشاعر محوره التقاء الحجاج فى فندق نزلوا به للراحة .

وكانت فكرة الحج أساسا، ليكون رواة القصص من طوائف مختلفة يقصون قصصا مختلفة كما هى طبيعة الحج .

ونشأت المسرحية الانجليزية الحديثة دينية كذلك . نشأت فى الكنيسة وكان موضوعها دينيا ، ومثلوها من الكهنة ، وموعدها المواسم الدينية خصوصا عيد الفصح . كان رجال الدين يعلمون الناس شعائر الدين وقصصه بتمثيلها فى الكنيسة أمام أعينهم لأن أكثرهم كانوا يجهلون القراءة . ويعرف تاريخ الأدب نوعان من هذه المسرحية الدينية هما « اللغز الغامض » The Mystry-Play ورواية « المعجزة » The Miracle-Play

كانت رواية « اللغز الغامض » تمثيلا لموضوع دينى هو ميلاد المسيح أو البعث . وكان « صلب المسيح » ، وسقوط إبليس أيضا ، وقصة نوح ، محورا لمثل هذه الروايات كثيرا .

وتطورت هذه إلى رواية المعجزة وفيها ظهرت حياة القديسين ، وتنوع الغرض ، وتولى شأنها رجال النقابات ، وأصبح مسرحها خارج الكنيسة ، وبقيت منها مجموعات تنسب إلى المدن التى كانت تمثل فيها مثل « كوفنترى » و « يورك » ، و « تشستر » ، وكان طابعها أول الأمر رزانة ووقارا ، لكن خروجها من الكنيسة إلى الشوارع ، وحاجة الجمهور إلى المرح ، وتدخل كتاب أو شعراء من غير رجال الدين ، كل ذلك سهل وجود الفكاهة فيها ، وساعدهم وجود شخصيات لا بأس من امتهانها أو السخرية منها مثل « امرأة نوح » ، التى لم تخر مواقفها زمن الطوفان وركوب السفينة . من عناد ونفار ، فلما ضربها ركبت مده ، ولكنها ظلت مبعث تعب له . ولا نستطيع أن نبعد رواية الأخلاق « The Morality-Play » عن موضوعنا وهى التى تحولت فيها الفضائل والرذائل إلى شخصيات حفل بها المسرح . وكان دخولها فى المسرحيات ذا أثر كبير فى دراسة أصحاب هذه الفضائل والرذائل وملاحظة نفسياتهم وخصائصهم .

كانت الإنجليزية لغة هذه الروية من عصر دورد الثالث (فى القرن الرابع عشر) وتطور أسلوبها وتحولت المسرحيات إلى التاريخ والمجتمع والسياسة وغير ذلك ، ولكن ظل الدين معينا خصبا للمسرحيات ثم القصص النثرية وللشعر الغنائى والملاحم إلى يومنا هذا .

ومن أهم الآثار التى تركها الدين فى الأدب الإنجليزى ظهور ترجمة للكتاب المقدس تعرف بالترجمة الرسمية « The Autherised Version » ، ظهرت سنة ١٦١١م فى أيام الملك جيمس الأول . وقد اشترك فى نقلها سبعة وعشرون من العلماء الذين اقتسموا العمل بينهم . وراجعت كل جماعة عمل جماعة أخرى وقضوا فى ذلك سبع سنين ، فجاءت الترجمة عملا أدبيا عظيما أفادت منه اللغة والأدب والعقلية والأخلاق ، وصار مصدراً لكثير من الأعمال الأدبية فى التمثيل والقصة والشعر الغنائى . بل إن كثيراً من الأمثال الشرقية والمعانى والأخيلة عرفت طريقها إلى الأدب الإنجليزى ، وظهرت فى ثنايا كتاباتهم وأشعارهم بفضل هذه الترجمة الرسمية وغيرها من الآثار الأدبية الدينية .

وترجمت الكتب المقدسة الأخرى مثل « تيمنا » و « الأفستا » والقرآن الكريم كما ترجمت أحاديث الرسول وأقوال الأنبياء والقديسين فى الأمم الأخرى إلى الإنجليزية . وإلى اللغات الحديثة كالروسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية ، وكان نقلها لأغراض دينية أو علمية ، لكنها تركت فى آداب تلك اللغات وفى عقول أبنائها آثاراً لا تنكر . ولولا منزلتها وقيمتها الدينية فى تاريخ الهداية والإرشاد وتأثيرها فى العقول والأخلاق ما عرفت طريقها إلى تلك اللغات الحديثة .

ولا ينسى دارسو الأدب الإنجليزى أن أهم ملحمة عندهم هى الفردوس المفقود « Paradise lost » ، وقد أخذها شاعرها العظيم جن ملتن « Milton »

من سفر التكوين، وله أيضا شمشون الجبار «Samson Agonistes»، أخذها من سفر القضاة كما تقدم .

وعندهم جن دريدن « J.Dryden » (١٦٣١ — ١٧٠٠) وقد اتجه فى كبره إلى الدين فكتب قصائد أوحى بها إيمانه ، ودافع عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، كما يعد من أعظم كتابهم تأثرا بالدين جن بانيان «J.Bunyan» (١٦٢٨ — ١٦٨٨) لأنه كان متدينا ولاقى العذاب فى سبيل عقيدته . وتأثر بالدين فى أدبه ، ومن أشهر أعماله كتابه الذى خلده بين أكبر الأدباء وهو رحلة الحاج « Pilgrims Progress » . وهو صورة حلم رآه يدور حول مسيحى قام برحلة ، ورأى فيها أهوالا ولم يضعف إيمانه .

وظل الدين إلى الآن مصدرا وباعثا على كثير من الأعمال الأدبية فى انجلترا وغيرها من البلاد .

الإسلام :

أما الأدب العربى فقد تأثر أعظم الأثر بالإسلام ، وظهرت فيه فنون لولا الإسلام لم تكن ، والكتابة الخطية والإنشائية أثران من آثار الإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر . وأعظم أثر أدبى خالد هو القرآن ، وأوحى الله إلى الرسول به بعد الرسالة . وكانت أحاديث الرسول دينا محضا ، ولولا الإسلام لم نسمع بهذه الأحاديث ، وخذ أدبا كأدب الخوارج بما فيه من دفاع قوى عن العقيدة نثرا وشعرا ، والمدائح النبوية ، وأخيرا القصص التى أوحى بها الدين إلى الكتاب والشعراء مثل إلياذة أحمد محرم ، وعلوية عبد المطلب وعمرية حافظ ، ومدائح شوقى فى الرسول ، ومحمد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، وقرية ظالمة لمحمد كامل حسين ، وعبقريات العقاد عمر وخالد وعمر الخ كل هذا ، وغيره كثير جدا فى الأدب العربى ، كان من وحى الدين وأثرا من آثاره اعتقادا ودراسة ، بل نستطيع أن نقول إن هذا الدين أحدث رد فعل فى أيامه

وبعدها . فأحدث حالة من القلق العقلى ، وأثار جدلا أدبيا فى أيام الرسول وبعده . وانبرى للدفاع عن الإسلام أهله ، ومازالوا كذلك إلى الآن، ويتخذ دفاعهم صورا متعددة منها البرهان والحجة ، ومنها الأدب الجميل القوى . وفى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ثار جدل كبير بين كبار رجالنا والمستشرقين ، ومازالت المناسبات الدينية عندنا باعثا على روايات مسرحية. ومازالت حاجة التلاميذ إلى غذاء روحى تحمل المؤلفين على كتابة قصص دينية وخلقية .

ولا أستطيع أن أحصى فضل الإسلام على الأدب . ولا أثره فى ظهور أعمال أدبية عظيمة . ولا فعله العظيم فى نشر المعانى والموضوعات الدينية إلى غير اللغة العربية ، ويكفى أن تقرأ الأدب الفارسى أو التركى لتجد فيها من الأعمال العظيمة المتأثرة بالإسلام شيئاً كثيرا يعد من عيون الآداب العالمية .